زوّار الليل

للاب ليثنكستون اليسوعي عرّبها حضرة الخوري اسطفان البشملاني

كانت جمعيّة القلب الاقدس المعروفة بجمعيّة « الاتحاد » قد عقدت في لندن اجتماعها الشهري جريًا على مألوف عادتها في دير « ارلنكتون » فالقى رئيس هذه الجمعيّة الاب موراي خطابًا بليغًا في هذه المناسبة جعل موضوعهُ « فضيلة الغيرة » فاجاد في ما قال منتهى الاجادة وكان لكلامهِ تأثير عجيب في نفوس الحضور لاسيّما عند ما جاء على ذكر مكافأة الاشتراك مع المسيح في عمل تخليص النفوس السامي. على ان تأثير هذا الكلام كان اشدّ واقوى في ابنة من صغار الطلبة ومن « الغيورات » في الجمعيّة اسمها اغنيسة بحيث وقع في قلبها وقوع الكلام المنزل وقد كانت ترى ان عمل تخليص الانفس ممّا لا تصل اليهِ مداركها لكنّهُ اصبح عندها بعد سماع خطاب الكاهن مفهوماً بيّنًا لا بل من الامور التي سلبت عقلها واخذت بمجامع قلبها كقمّة جبل تجلّت للناظر بعد ان وقعت عليها اشعّة غزالة الصباح. ومن ثم شعرت كأن قوّة تدفعها الى القيام بشيء من هذا العمل الخطير لكن كيف وباي طريقة تلك مسئلةٌ بقيت عندها محلّا للنظر ولم ترَ بُدًّا من مكاشفة الاب موراي بها وعليهِ فبعد اعطاء البركة وقفت تنتظرهُ في ردهة الاستقبال

وكان هذا الاب معروفًا بطيب القلب وبشاشة الوجه ممّا جعل الاحداث يستأنسون بهِ وكان يعز هذه الابنة التي لم تتجاوز الاثني عشر ربيعًا ويفضّلها على غيرها من اترابها لا لجمالها اذ كان يرى كلّ ولد جميلًا ولا لصلاحها لانهُ كان اعلى من ان يسيء الظن باحد من أحداث رعيّتهِ ولا لامتيازها عن اقرانها الطلبة اذ كانت تتساوى عندهُ اقدار الاحداث بل السبب ما رواهُ لبعض الكهنة قال: « كان يعجبني من هذه الابنة مزيّة واحدة وهي معرفة الالهيّات الامر الذي ربّما عجبتَ منهُ والذي اعنيهِ هو انّها تفهم حقائق ديانتنا المقدّسة. وانت ترى ان الرجل الموسيقي يميل الى تلميذ مولع بفنّ الموسيقى والمصور يعزّ تلميذًا اوتي براعة خاصة في فنّ التصوير اذًا فلا بدعَ اذا اعزّ الكاهن تلميذًا اوتي موهبة فهم الامور السرمديّة »

وقد اختبر الكاهن الفاضل هـذه الموهبة في الابنة المذكورة أيام كان يؤهب الاحداث الى المناولة الاولى منذ سنة وكان جريًا على حميـد عادتهِ يقترح على الاولاد استظهار امثولة معيَّنة في التعليم المسيحي ويُعنى بتفسيرها لهم بكل دقّة ثم يأذن لكل منهم ان يلقي عليهِ ما شاء من الاسئلة في الامور التي شرحها لهم. وقد قال الاب موراي ايضاً: «كثيرًا ما كنتُ اندهل من اسئلة هذه الابنة وملاحظاتها الصادرة عن صائب نظر وطول رويَّة واذا شرحتُ قاعدة من قانون الايمان ادركتْ من معناها الغاية واحقّق لك انني بعد وقوفي على مبلغ عقل هذه الابنة لم اعد اعجب لعمل القديسة كاترينا التي الحمت من ناصبها من فلاسفة عصرها الخالي في الاسكندريَّة»

ثمَّ بعد زمنٍ قليل اتى الاسقف ليمنح ابناء رعيتهِ سرّ التثبيت فبسط هذا الاب الغيور لدى سيادتهِ حالة اغنيسة فتبسَّم لِما رآهُ من حماسة هذا الكاهن الشيخ واستحسن ان يضاف الى اسمها في التثبيت لفظـة كاترينا فسُرَّ الكاهن لذلك وقال: «انني لاعجب كيف ان هذه التسمية لم تجرِ في خلدي ولا غرو فان آراء سيادتكم لهي آيات منزلة لان الابنة ككاترين بطهارتها وحكمتها»

ولا بدعَ اذا رأينا هذا الاب زاد اعزازًا لهذه الابنة واذْ رآها ذات يوم بادهـا قائلًا: «ما حالك يا اغنيسة انك لقد اصبحت اليوم من الغيورات بل من الصادقات في جمعيَّة يسوع المباركة فخبذا هذا الفخر ولك مني خالص التهنئة. قالت: اشكرك ابتِ غاية الشكر وانني سأبذل الجهد لتحقيق رغائبك واكون من المحاميات الصادقات على انني جئت الآن ارجو حضرتك الافادة عن شيء ورد في عظتك بالامس. فقال: ما هو. قالت: امر تخليص الانفس فقد حدّثني النفس بان اقوم بهذا العمل ويعلم الله ما فعل كلامك في قلبي فلم اكن ادري من قبل ما هو تخليص النفوس. قال: ان هذا عمـل مقبول لدى القلب الاقدس وانني مسرور لكون كلامي اثّر فيكِ هذا التأثير. قالت: نعم ابتِ وقد وطنتُ النفس على تخليص نفس واحدة على الاقل. قال: انفسٌ واحدة خلا نفسكِ. قالت: نعم وهنا نقطة المسئلة فانني اذا استطعت ان اخلِّص نفساً كنت على ثقة من خلاص نفسي. قال: ذلك لا ريب فيهِ. قالت: ومن ثمَّ صحَّ عندي انَّ من اخلّصهُ لا يقرّ لهُ قرار حتى يعلم انني على وشك الخلاص ولنفرض — وهنا نظرت الابنة الى الكاهن مبتسمةً — ولنفرض ابتِ انني خلصتُك أفلا تعمل بما في وسعك

على ان تفتح لي باب السماء. فتبسَّم الكاهن وقال: من البديهي انني افعل ذلك واقيم الحجَّة على القديس بطرس اذا حاول ابقاءكِ خارج الجنَّة

لعمري ان محادثة هذين الصديقين على تفاوتهما في العمر لمما يبتهج لهُ الخاطر ويقر بمرآهُ الناظر ولا بُدَّ للصداقة كما قال الفيلسوف من وجود التناسب بين الصديقين وترى ان هذا التناسب قد وُجد لسمو مداركِ الابنة الصغيرة من الجهة الواحدة ودعة الكاهن الشيخ من الجهة الاخرى ثم قال الكاهن: لقد اصبت يا اغنيسة في الاعتقاد بان الاحسان يقضي على المحسَن اليهِ بان يعمل كل ما بوسعه لخير المحسِن. قالت: ذلك ما فكرتُ فيهِ ولا بدع ان مخلصنا الالهي لا يدع عبدًا اكرم منهُ فاذا خلصتُ لهُ نفسًا خلَّص لي نفسي. وهذا ما حملني على الرغبة في تخليص نفس واتيتك الآن مستفيدة كيف يتهيَّأ لابنة مثلي ان تخلِّص نفسًا فانك انت كاهن ويتسنى لك تخليص الشعب. قال الكاهن: قد يمكنكِ تخليص الغير بالصلوة وعلى الخصوص مع الاخرين كما هو الغرض من جمعيَّة الاتحاد. قالت: نعم غير انني لا اظفر بالضالَّة المنشودة وهي ان اخلص نفسًا بمفردي. فاطرق الكاهن هنيهةً ثم قال: لقد ادركتُ قصدكِ وهاكِ طريقة الوصول اليهِ وهي ان تعتمدي طفلًا على خطر الموت في حين ليس من وقتٍ لدعوة الكاهن فان مات الطفل بعد هذا كنتِ على ثقة من ارسال نفس الى السماء. على انهُ لما كان ذلك نادر الوقوع فخير لك ان تصلي لاجل الانفس بالعموم وتسالي الله ان يُوحي اليكِ اذا ما خلص شخص بصلواتك وربَّما بقي ذلك غامضًا لديكِ الَّا ان اسرار الله وطرقه عجيبة فسلمي الامر الى مشيئتهِ عزَّ وجلَّ وهو يرشدك الى الطريقة المثلى. قالت: اشكر لحضرتك الافادة والآن فانني استودعك الله. قال: على الطائر الميمون وبحراسة الله

*

بينما كانت اغنيسة عائدة الى البيت اخذت تفكر في ما قالهُ الاب موراي وعزمت على ان تتلو كل يوم بعض صلوات لخلاص الانفس غير غافلة عن انتهاز فرصة لتعتمد طفلًا على خطر الموت فاخذت من ثم تعتني بامر الاطفال من جيرانها حتى اكتسبت قلوب ذويهم بلطفها وبذلك تسنى لها معرفة من تنصَّر من هذه الازهار

البشريَّة الناضرة ومن لم يتنصَّر منها ثم وجهت منتهى العناية الى الصغار غير المعتمدين لتجعلهم اولادًا لله وورثة السماء.

فاتفق انها بينما كانت ذات يوم مارَّة ببعض البيوت رأت امرأةً ايطاليـة الاصل كانت توطنت حديثًا مع اسرتها ذلك الحيَّ ورأت في حجرها طفلًا خُيِّل لها بانهُ واحد من جوقة الاطفال السماويَّة التي تبدو بكمالها وجمالهـا من فوق قوس بهيج كما تُرى في صور المصوّر رافائيل الشهير ولم تتمالك ان هتفت قائلة لتلك الام : تبـارك الله ما اجمل طفلك. وما تم حتى تمكنت عرى الصداقة على قصر العهد بين الابنة والام وبالمثل بين ذلك الطفل الذي اخذ يزحف مادًّا يديهِ الى اغنيسة الصغيرتين عند ما تهمّ باخذهِ على ذراعيها كأنَّ قد أُوحي اليهِ اعجاب الابنة بهِ. وعرفت اغنيسة ان هذه الاسرة كاثوليكيَّة وان الطفل لم يعتمد بعد وقد اتى عليهِ من العمر ستَّة اشهر فألَّحت الابنة على المرأة لتسرع بتعميد الطفل مخافة ان يفاجئهُ لا قدَّر الله ما يودي بحياته فيحرم من الذهاب الى السماء ومن صحبة الملائكة الذين يميلون الى مرافقته وهو بمكان من الجمال والظرف. فهذه الكلمات الساذجة بعثت في صدر تلك الام قلقًا وعادت على نفسهـا باللوم على هذا الاهمال وقالت انها تكلِّم زوجها في هذا الشأن

وكانت من نتيجة ذلك ان الطفل صـار تعميده من يد الاب موراي في الاحد التالي وكانت اغنيسة بعد اخذ رضى والديها كفيلة لهُ وبعد انتهاء الحفلة تقدم الكاهن من اغنيسة واثنى خيرًا على مروءتها وبيَّن لها ان قد نالت سهمًا عظيمًا في هذا العمل المبرور ثم ألمع الى انهُ اذ لم يتم الطفل كما يرجو وجب عليها العناية بتربيتهِ على الدين الكاثوليكي واصبحت مسئولة بالمحـافظة على تقويم اخلاقهِ. فهذه المسئوليَّة اضعفت شيئًا من عناية اغنيسية بالاطفـال وقالت : ان الاجمل بي ان اصلي لاجل خلاص النفوس واترك الباقي على الله

واصيل يوم الاحد بعد ذلك بشهر من الزمان كان الاب موراي راجعًا من عيادة مريض وعلى وجههِ علائم الغمّ ودلائل الاضطراب كأن امرًا جرى على غير ما يريد. وتفصيل الخبر ان امرأة كانت مرَّت بهِ وحدَّثتهُ بوجود رجل مشرف على الموت نازل في بعض بيوت ذلك الحي وهو من جَحَدة الدين الكـاثوليكي وطلبت اليهِ ان يدبّر المريض الذي لم يدعُ كاهنًا بالتي هي احسن. فشكر لها هذه العناية ووعدها باتمام ذلك

وما لبث ان انطلق الى منزل الرجل فوجده قد ناهز الخمسين من العمر متوسّدًا فراشًا باليًا اصفر الوجه يقاسي اشدّ الاوجاع. وما كاد الكاهن يدخل حتى لمحهُ العليل فحوّل نظره عنهُ كأنّهُ اشمأزّ من منظرهِ. فدنا الاب من فراشه وقد اخذتهُ الشفقة عليهِ وطفق يلاطفهُ برقيق الكلام مستفسرًا عن حالة مرضه ثمّ سألهُ اذا كان كاثوليكيًا فاجاب الرجل بنفور: لا لستُ على شيء. قال: ولكن أما كنت كاثوليكيًا من قبل؟. قال: مهما كنتُ فلست الآن على شيء. ولا اعتقد بدين من الاديان. فاذ ذاك اخذ الاب موراي يستعمل ما أوتيه من الحكمة والدربة ليضرم في صدر هذا الجاحد شرارةً من الايمان ويبعث بهِ على الرغبة في اسرار الديانة ولكن ذهب تعبه سدًى وبقي ذاك القلب قاسيًا كالصخر الاصمّ واخيرًا قال الرجل: لا تزعجني فانا لم أدعُك اليَّ ولست بداعٍ كاهنًا او مرسلًا سواك ايًّا كان. ولمّا رأى الكاهن الصالح ان تعبه ذهب ادراج الرياح ترك ذلك البيت ومضى. وهذا سبب ظهور علائم الكآبة على وجهه في حين رجوعه الى منزله. وبينما هو يفكر في هل من وسيلة يستخدمها لرجوع ذاك الضالّ الى الله واذا بصوت عذب نبّههُ من تفكّره يقول: اسعد الله مساءك يا ابتِ موراي. والتفت فرأى اغنيسة تنظر اليهِ مبتسمةً وكأن قد أوحي اليهِ على ما يعرض لمن زاول المهنة المقدّسة ان العناية الالهية شاءت ان تمنح نعمة الهداية لذاك الخاطئ المصرّ على غيّهِ على يد تلك الابنة الطاهرة فقال: اريد منكِ يا اغنيسة ان تسرعي الآن الى الكنيسة وتتلي بعض صلوات لاجل رجل مارق من الدين عسى الله يمنُّ عليهِ بالتوبة ونور الهداية. قالت: سمعًا وطاعة. وتوجّهت الى الكنيسة وسار الكاهن في سبيله وقد سُرّي عنهُ بعض الهمّ وهو على يقين من ان الخاطئ لن يموت بدون الزاد الاخير

*

ان الصلوة لاجل اهتداء رجل خاطئ لم تكن بالامر الغريب لاغنيسة فقد اعتادت ان تذهب في كل احد لتسمع الاب موراي يقرأ قائمة اسماء الذين تُطلَب الصلوة لاجلهم استمدادًا لنعمة الاهتداء والميتة الصالحة والنعم الضرورية. فدخلت الكنيسة وتلت بعض الصلوات على نية الاب المذكور وعادت الى بيتها فوجدت والديها بانتظارها في ردهة الاستقبال وما كادت تدخل حتى قالت لها امها: انني كنت احدّث والدك عن ترنيمة جديدة أنشدَها الاحداث في قدّاسهم هذا الصباح وقد أُعجبت بها غاية

الاعجاب فهل تعرفين عنوانها ؟ قالت : هل تريدين الترنيمة التي مطلعها « اسمعي يا نفسي » ؟ قالت : نعم هي هي . قالت : انها احدى اغاني فابر الشهير وعنوانها « زوّار الليل » ولعمري انها غاية في الحسن ويا ليت عندنا علاماتها الموسيقية . قالت : ينبغي استحضارها فهل تعرفين اسم واضعها ؟ قالت : نعم وضعها ريشردسون . فقال المستر رالي ابو الابنة : انني اشتريت بعض انغام موسيقيَّة وقد اعطاني احد الكهنة كتاب اغاني انكليزيَّة لاطالعهُ ولعل فيهِ علامات الانشودة المطلوبة فاصعدي يا اغنيسة الى غرفتي وأحضري لي الصرَّة الموضوعة على الخزانة . فذهبت واستحضرتها وما كاد ابوها يفتح الكتاب حتى رأى كلمات الانشودة وعلاماتها بعينها فسُرّت امرأته لذلك سروراً عظيماً وقالت لابنتها : ينبغي الآن ان تغنّي الترنيمة ليرى ابوك ما اشجاها وانا اعزفها على البيانو . قالت : حسناً ما قلتِ وانا لستُ اعرف منها سوى ثلاثة ادوار . قالت : ذلك يكفي وتقدمت الى البيانو وكان النهار جميلاً والحرّ شديداً ففُتحت النوافذ لدخول الهواء النقي فرفعت اغنيسة صوتها وانشدت :

اسمعي يا نفسي انغامَ السما وقد امتدَّت قُبَيل الغَلَسِ
فوق بحرٍ بالنهار ألْتطما ورياضٍ ذاكيات الغرسِ

*

حبَّذا صوتٌ حلا اذ حملا صادق الاخبار عن ذاك النعيمْ
حيث وجه الله يبدو من عُلى عرشهِ تبارك الوجه الوسيمْ
لا شقاء لا عنا لا وجلا بل سلام أبدَ الدهرِ مقيمْ

*

تلك اجواقُ مسيحٍ عَظُما هبطت ترهو باجى ملبسِ
انشدت « زوَّارُ ليلٍ » نغما حاويَ الترحاب بادي الانسِ

وقد كان صوت اغنيسة في بادئ الامر ضعيفاً غير واضحٍ تمام الوضوح الَّا انها ما تقدَّمت بالانشاد حتى اشتدّ الصوت قوةً وتأثيراً مجاوباً لعواطفها التي تنبهت بالكلام والنغم فتحرك ابواها واخذتهما هزّة الشجو والطرب . وما كادت تنتهي من الانشاد حتى تقدمت امُّها المسترس رالي وقد تولَّاها الدهش والعجب وهنَّأت ابنتها على ما أُوتيت من البراعة في الغناء واذ نظرت الى وجهها ورأت الدمع يجري من مآقيها قالت : ما شأنكِ يا عزيزتي اغنيسة . قالت : لست ادري يا اماه وقد شعرت بشيء غريب في اثناء غنائي اذ خيّل لي ان كلمات الانشودة وانغيمة وتمثّلت لعيني صورة

الملائكة ينشدون وكاني بهم يتضرعون الى الله في شان الخاطئ المسكين الذي رغب اليَّ الاب موراي في ان اصلّي لاجلهِ. فقال المستر رالي: من هو يا ترى ذاك الرجل. قالت: لا ادري ولكن الاب موراي قال لي انهُ شخصٌ قد اشرف على الموت وهو في حاجة الى نعمة الاهتداء ولعلي لم اصلّ لاجلهِ بكفاية فاستأذنكما في الصعود الى غرفتي لاتلو بعض صلوات لاجلهِ. وما كادت تخرج من حضرتهما حتى قالت الام: تالله لقد اصبحت اغنيسة لطيفة الاحساس قال الاب: نعم واخشى ان تصير ألطف احساساً فيفاجئها لا قدر الله بعض الامراض وليس عجيباً ان ابنةً من مثلها تتأثر لكلام أُغنيَّة او لتفكرها بموت رجل مما لم تعتَدْ مشاهدتهُ وقد خُيِّل لي ان وجهها يلمع وقت الغناء كوجه من ينزل عليهِ الوحي وقد اهتزتْ لصوتها كالشارب الثمل. قالت: و يا عجبي ان ذلك ما حدث لي. قال الاب: هيَّا بنا الآن لننظر الى هذه الانشودة تبارك الله ما ارقَّ هذا النظام واجلى هذا الكلام فلله درُّ الاب فابر من شاعر مجيد وانني سمعت ان لو لم يصرْ كاثوليكيًّا لعدهُ الانكليز شاعر العصر ولا جرم انَّ من اعظم انتصارات الكنيسة في هذا القرن اهتداء هؤلاء العلماء الاعلام والموسيقى الثلاثية الانغام ألا وهم « نيومن ومانينغ وفابر » وقد صحّ ان الكنيسة الكاثوليكيَّة تستطيع أنْ اشرف الناس مهما سمت مداركهم وارتفعت منزلتهم فبحقيقتها فازت بعقل « نيومن » الباهر وبصلاحها الذي لا يُغلَب تغلبت على ارادة « مانينغ » وببهائها اكتسبت قلب « فابر » الرقيق

*

ان الحالة التي يرى المرء نفسهُ فيها بعد نبذ نعمة الله لهي اتعس الحالات واشقاها وهذا المحتضر الخاطئ الذي رفض قبول رسالة الاب موراي عرف الان قيمتها فقد حاول حيناً ان يتستَّر بستار الشك ويتمنَّع بحصون الريب والوهم ولكن ما عتم ان تقلصت هذه الغياهب الرقيقة وتقوَّضت تلك الصروح الواهنة بترديد حملات الاب موراي الصادقة والنقض البيّن لمزاعم عقلهِ الوهميَّة ورأى ضميره يشكوه وجهاً لوجه لانهُ وهو الرجل الكاثوليكي المولد قد ابى قبول مساعدة كاهن عند احتضاره و بالتالي رفض مقاصد الخلاص وكثيراً ما حدثتهُ النفس — والنفس امَّارة بالسوء — ان قد فات الوقت وتوبة المريض مريضة وبهذا اعتراه الفشل وجرَّه الى اليأس او كاد. وكان

انَّ نافذة غرفتهِ تُركت مفتوحةً فدخل منها صوت ولدٍ يغني غناء تعشقهُ النفس ويحنُّ اليهِ القلب وقد اتى ذلك الصوت الرخيم بيّناً مفهوماً عند سكون الاصيل حتى سمع الغناء كلمةً فكلمة . فاصغى الرجل شديد الاصغاء تخلصاً من نخس ضميره وصرفاً لذهنهِ عمَّا كان يقلقهُ من الهواجس . فوجد في بادىء الامر شيئاً منعشاً ملطِّفاً في رنين صوت الولد الطاهر الَّا ان هذا لم يكن واحسرتاه بالامر المقصود اذ قد اتجه ذهنه الى الترنيمة فتذكر الفاظها وقد كانت هذه ممَّا اعتاد ان ينشـــدهُ في زمن الصبا وهو بعدُ طفل طاهر في جوقة المرتلين بانكلترة . فساقهُ تصوره الى مراجعة تلك الايام السعيدة فذكرها بعد نسيانهِ وتمثلت لعينيهِ تلك الاقواس البهيجة في الكنيسة القديمة العهد حيث وقف الكاهن في المحراب وقد جثت والدته على مقعدها عن قرب وهو ينشد :

تلك اجواق مسيحٍ عظما هبطت تزهو باهى ملبسِ
انشدت « زوّار ليلٍ » نغما حاويَ الترحاب بادي الانسِ

ولا ريب انهُ كان اذ ذاك اشبه بملاك . ولكن اترى الملائكة تنشد مرحّبة بهِ اليوم لهُ كيف انقلب . فهطل الدمع الغزير من مآقيهِ لتفكره بهـــذا واختلط قلبه بالغمّ والاشجان ثم سمع انشاد الدور الثاني :

صوتها رنَّ رنيناً قد حلا من بعيدٍ في الدجى وهي تصيحْ
« يا نفوساً حملُهـا قد ثقلا لا تخافي واتبعي صوت المسيحْ »
« انهُ يدعوكِ فأتي عجلا كل من يأتي اليهِ يستريحْ »

*

اغا الانجيل موسيقى فما اطرب الصوت بلحنٍ قدسي
انهُ يحدو بنا نحو الحمى جنة الفردوس اشهى مجلسِ

فهتف قائلاً ان الربَّ يدعوني اليـهِ فلم يفت الوقت بل لم يزل لي رجاء . ارحمني يا يسوع مُرني لكي آتي اليك . ثم سمع الدور الثالث :

ودوي من بعيدٍ يُسمعُ كتواقيسٍ دوتْ عند المغيبْ
او بحارٍ موجهـا لا يجمعُ او حمامٍ سجعت سجع الخطيبْ
شُغل القلب بهِ والمسمعُ ذاك حقاً صوت ايسوع الحبيبْ

*

ايها الراعي الالهي اغثا انت غوثٌ لضعاف الانفسِ
فأدِرْ خطواتها نحو السما وأغثا ارشاد روح القدسِ

ان صوت اغنيـة المحرّك العواطف « كناقوس دوى عند المغيب » كان لذلك الخاطئ

المحتضر كصوت الراعي الصالح نفسهِ يدعوه اليهِ ليرجع الى المرعى الحقيقي فهتف قائلًا: انا آتٍ يا مخلصي الحبيب. وما كاد يأتي على هذه العبارة حتى دخلت اليهِ تلك المرأة التي ذكرنا انها كانت تعتني بهِ رحمةً واشفاقًا فبادرها قائلًا: ناشدتُك الله ايتها المرأة ائتيني بالكاهن عاجلًا ليرد اليَّ السلام قبل الممات. فاسرعت المرأة وهي لا تكاد تعي من شدَّة الفرح وبلَّغت الامر الى الاب موراي الذي سار من وقتهِ الى جانب فراش المريض واخذ يعزّيه باسرار الديانة الاخيرة. وما اشدَّ ما كان تعجبهُ اذ علم ان الحامل على اهتداء الخاطئ كان انشاد اغنيةٍ لبعض الاولاد المجاورين وللحال طرق فكرَهُ اسمُ اغنيسة. فاستعلم من المرأة عمَّا اذا كانت سمعت الغناء وعرفت المغني فقالت: نعم ومن المؤكد ان الولد ما كان الَّا بنت المستر رالي الصغيرة بارك الله فيها ما كان اطرب صوتها. قال: لقد صحَّ ما قدَّرتُهُ فاسرعي يا مسترس مورفي وتكرمي باحضار اغنيسة. ولمَّا اتت اخذها بيدها ودنا بها من فراش العليل قائلًا: هوذا الولد الذي انشد الترنيمة التي سبيتْ لك هذا التأثير. فهتف الرجل وقد اخذ يدها وادناها من شفتيهِ قائلًا: ليباركك الله يا بُنيَّة فبفضلكِ نلت نعمة الرجوع الى ربّي. امَّا اغنيسة التي لم تكن تدري بشيء مما حدث وقفت كالمأخوذة على ان الاب موراي اسرع فاخبرها بالامر وقال: هوذا الشخص الذي رغبتُ اليكِ في ان تصلي لاجلهِ وقد وددت الآن ان تسمعي من فمه ان الله عزَّ وجلَّ قد شاء برحمته ان يسمع صلواتك فاذهبي الآن واخبري والديك بانني سامر بهما عند رجوعي الى منزلي. حينئذٍ وجَّه انظاره الى المحتضر الذي اخذت قواهُ تنحلّ وتنحط بسرعة فتلا صلوات المحتضرين لاجله واقام عند فراشه يشجعهُ ويعزيه حتى لفظ انفاسه الاخيرة بسلام. واذ ذاك قام وهو مملوء عزاء يحمد العناية الالهيَّة العجيبة ثم انطلق ليزور آل رالي فوجدهم يتوقَّعون مجيئه بفروغ صبر لان حديث اغنيسة الملتبس سبَّب لهم حيرة. فقصَّ عليهم الخبر اليقين وختم الكلام قائلًا: انني على يقين تامّ ان الرجل مات بتوبة صادقة ولا ريب في انهُ فاز بالخلاص وعليهِ فقد قيَّض الله لك يا اغنيسة ان تتحققي اجابة صلواتك. قالت: نعم ابتِ تبارك الله جلَّ وعلا ان طُرقهُ عجيبة وارى نفسي موعبة من الشكر والحمد لهُ تعالى اذ تفضَّل ومنَّ عليَّ بتخليص نفس. وهنا تكلم المستر رالي فقال: انني بعد امعان النظر في كل ما حدث لا اظن ان اغنيسة نالت وحدها كرامة هذا الاهتداء بل هناك شريك يشاركها فيهِ وهو انا الذي استحضرت

الكتاب المشتمل على الترنيمة التي انّرت بالخاطر. فقالت المسترس دالي: وانا لا أحرم نصيباً من اجر هذا العمل اذا كنت اوّل من فكر بالترنيمة وأغريتُ اغنيسة على انشادها. حينئذٍ قال الاب موراي: لقد احسنتم ايها الكرام في ما نطقتم ولا بد لي من ان أخص الاب فابر الذى نظم الانشودة بسهم فهو والحق يقال جدير بالنصيب الاوفر وانا أخشى يا اغنيسة ان لا يبقى لك الّا اليسير بهذا الاجر. ولكن اغنيسة تبسمت لهذا القول وشعرت بنفسها ان العلي قد استجاب دعاءها وكان قلبها يطفح عزاء وفرحاً

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

٦ انتشار الامّة المارونيّة (تتمّة)

ولمّا كثر عدد الموارنة في القرون الثامن والتاسع والعاشر اخذوا شيئاً فشيئاً في الامتداد الى الجنوب واحتلّوا بلاد جبيل. وممّا يشهد على سكناهم في معاملتي جبيل والبترون مذ ذاك العهد عدّة كنائس سبق لنا وصفها في مقالتنا عن كنائس لبنان القديمة (راجع المشرق ٣: ١٨، ١٠). وقد لقي الموارنة في تلك النواحي قوماً من اصل البلاد كانوا يسكنون السواحل والوسوط. غير انّ عددهم لم يكن متوفرًا. وكان اكثرهم نصارى يتكلمون باللغة الآرامية ويقيمون فيها طقوسهم الدينيّة. وعندنا انّ هؤلاء الآراميين لم يلبثوا ان يمتزجوا بعد قليل بالموارنة امتزاج الماء بالراح كما امتزج بهم ايضاً بقايا المردة والجراجمة الذين تخلّفوا في لبنان. وكانت مهاجرة سكّان وادي الأرنط الى لبنان لا تزال متواصلةً متتابعة لمزاحمة اليعاقبة واضطهادهم للموارنة

وكان الملكيّون مع هذا يقطنون بعض قرى لبنان في بلاد البترون وجبيل مثل